امبراطور المانيا السابق وسجنه

قيل ان امبراطور المانيا سينقل الى لندن ويحاكم فيها ولكن قرأنا في شهر سبتمبر الماضي مقالة لكاتب انكليزي في مجلة القرن التاسع عشر يخطىء فيها محاكمتهُ في لندن ويتوسل الى قومهِ ان لا يكون لهم في عقابهِ يد على الاطلاق واقام على ذلك حججاً نظن انها اقنعت السواد الاكبر من القراء قال

قال الحلفاء في شروط الصلح انهم يقصدون محاكمة الامبراطور السابق في محكمة دولية مختلطة . ووافقت المانيا على هذه الشروط ولذلك يحق لنا ان ننتظر محاكمتهُ عما اتهم بهِ وهو انهُ بينما كان ينادي بالسلم كان يعمل الاعمال التي اثارت هذه الحرب بتحديهِ الممالك وان نار الحرب أوقدت سنة ١٩١٤ بسبب خطبهِ المهيجة وموقف التهديد الذي كان واقفاً فيهِ وانهُ كان في استطاعتهِ ان يمنع هذه الحرب لو شاء وان الفظائع التي ارتكبتها جنودهُ قد رُتبت ونظمت على علم منهُ ورضاهُ فاقتدى بهِ حلفاؤهُ النمسويون والبلغار والاتراك . وهو الذي طالب هذه الحرب ووافق على كل ما ارتُكب فيها من المنكرات . ولذلك فهو متهم بانهُ ارتكب اكبر الجنايات . والسواد الاكبر من الناس مقتنع بادانتهِ والمرجح ان قليلين يرتابون في ذلك حتى في المانيا نفسها فضمير الناس عموماً يطالب محاكمتهُ لاثبات ما اتهم بهِ او لتنفيهِ . وان كان هنالك ادلة تثبت براءتهُ او تستلزم تخفيف عقابهِ فلهُ ان يوردها ويدافع عن نفسهِ . والغرض الاهم هو معرفة السبب الحقيقي لهذه الحرب وويلاتها

الا ان مذهب الالمان في مسؤولية الملوك يختلف عن العرف العام في مسؤولية سائر الناس فقد قال فردرك الكبير ملك بروسيا انهُ ينبغي للملك كما في بلاده ان يعمل كل ما يأول الى حمايتها ولو لم يجز لهُ عملهُ بصفتهِ الشخصية لان الرعية مقيدة بطاعة القوانين واما ملكها فغير مقيد بطاعتها . فاسياً ان الناموس الادبي تجب طاعتهُ على جميع الناس على السواء سوقة كانوا او ملوكاً . وجرى ولهلم الثاني في خطة سلفهِ حاسباً انهُ فوق القانون وغير مقيد بطاعتهِ كعامة الشعب فيجوز لهُ ان يعتدي على حيرانهِ ويأخذهم على غرة ويرتكب كل انواع

الغش والخداع اذا كان في ذلك نجاحهُ كملك وكانت مصلحة امتهِ تقتضيهِ . وهذا المبدأ هو الذي انكرهُ الحلفاء عليهِ وحاربوهُ لاجل نقضهِ فهو حارب لاجل مصلحة بلادهِ وهم حاربوا لاجل مصلحة العالم وتأييداً للناموس الادبي

فاذا جرت المحاكمة على هذا النمط وكانت حجة الحلفاء ان مصلحة العالم يجب ان تقدم على مصلحة امة واحدة من امهِ وان المصلحة الخاصة مهما كانت لا ينبغي ان تفضل على المصلحة العامة وثبت على الامبراطور السابق انهُ مجرم يستحق العقاب صار مثلهُ مثل نبوليون . نعم ان نبوليون لم يحاكم ولكن اجمع الناس على انهُ مجرم يستحق العقاب فهذا الحكم الذي حُكم بهِ عليهِ في محكمة الراي العام والعقاب الذي عوقب بهِ وتأثير ذلك في علاقات الدول كل ذلك لهُ شأن كبير فيما يصيب امبراطور المانيا

ففي ٣١ مارس سنة ١٨١٤ سارت جنود الحلفاء روسيا وبروسيا والنمسا الى باريس ودخلتها ظافرة وفي طليعتها جرس القيصر اسكندر قيصر الروس ووراءهُ جرس ملك بروسيا ثم قيصر روسيا نفسهُ وعن يسارهِ ملك بروسيا فردرك وليم الثالث وعن يمينهِ البرنس شوارتزنبرج نائب امبراطور النمسا ووراءهم المشاة من جنود النمسا وبروسيا وروسيا ووراء هؤلاء جيش كبير من القوزاق . ولم يدخل معهم جندي واحد من الانكليز لان جيش الجنرال سولت كان لا يزال يقاوم جيش ولنجتون في جنوب فرنسا

وفي ذلك اليوم عينهِ نشر القيصر اسكندر المنشور التالي وكان مثل زعيم للحلفاء وهو

« ان ملوك الحلفاء اجمعوا فرنسا على ما ترغب فيه وهم عازمون ان لا يضعوا نبوليون من الآن فصاعداً ولا احداً من اسرته وستؤيد شروط الصلح بذلك . ولاجل خير اوربا يبدي ان تبقى فرنسا عظيمة وقوية وهم يحترمون بقاءها كملة كما كانت في عهد ملوكها الشرعيين و يعترفون بالدستور الذي سنته لنفسها ويضمنونه »

وبعد يومين اي في ٢ ابريل سنة ١٨١٤ خلع مجلس السنات نبوليون وتنازل هو لابنهِ بعد يومين ولكنهُ وجد انهُ لا يستطيع الاعتماد على الجيش فتنازل من غير شرط عن عرش فرنسا وعرش ايطاليا وعاد مجلس السنات حينئذٍ بلويس الثامن عشر ملكاً على فرنسا . وفي ١١ ابريل عقدت معاهدة فونتينبلو فابعدت نبوليون

لقب امبراطور وجعلتهُ ملكاً على جزيرة البا وقطعت لهُ ثمانين الف جنيه راتباً سنوياً ووقّع المعاهدة نواب روسيا وبروسيا والنمسا واثنان من قبل نبوليون (كولنكور وناي) ووافقت عليها حكومة فرنسا الموقتة يومئذٍ ثم حكومة لويس الثامن عشر في ٣١ مايو

اما انكلترا فاعترضت من اول الامر على اقامة نبوليون في جزيرة البا حاسبة انهُ يكون خطراً على اوربا. ولكن القيصر اسكندر قال انهُ ينبغي ان يرى العالم كرم اخلاقهم ورحب صدورهم وحتم بانهُ يجب ان يشقوا بشهامة نبوليون. فاضطرت انكلترا ان توافق على اعطاء البا لنبوليون ولكنها رفضت الموافقة على سائر مواد المعاهدة وعلى ان يبقى لنبوليون لقب امبراطور. اما نبوليون فجعل انكلترا قبلتهُ واليها اتجه في طلب الحماية لانهُ كان يخشى ان يُقتل غيلة واعتقد انهُ اذا اقام في بلدان اخوانهِ ملوك اوربا قضي عليهِ ولا امان لهُ الاَّ اذا حماهُ الانكليز وطلب ان يقيم في انكلترا لكن لورد ليفربول وكان رئيس الوزراء لم يجبهُ الى طلبهِ. ولما رأى ذلك طلب ان لا يذهب الى البا على سفينة فرنسوية بل على سفينة انكليزية ولما وصل الى البا اخذ معهُ حرساً من بحارة الانكليز. وبقي السر نيل كل في الجزيرة اجابة لطلبهِ فاعرب لهُ مراراً عن رغبتهِ في الالتجاء الى انكلترا والاقامة فيها

وكان نبوليون في البا ملكاً حرًّا حسب الظاهر واما في الواقع فكان اسيراً تراقب حركاتهُ وسكناتهُ وتفتح كل مراسلاتهِ. وكان المفهوم انهُ اذا حاول يوماً ما مغادرة الجزيرة فيكون قد اعتدى على سلام اوربا. وكانت فرنسا متكفلة بحراسة البحر حول الجزيرة ولكنها لم ترسل سفينة فرنسوية لحراستهِ الاَّ بعد ان خرج من الجزيرة. وتركت الحراسة لسفينة واحدة انكليزية تتردد بين ليفرنو ومرفأ الجزيرة فخرج نبوليون من الجزيرة هو واتباعهُ حينما كانت السفينة في ليفرنو فشاع القول حينئذٍ ان الانكليز هرَّبوهُ من الجزيرة وصدقهُ الناس على ما فيهِ من البعد عن الحقيقة

لكن الدول الثمان وانكلترا منهنَّ تشرن قراراً قلن فيهِ ان نبوليون بونابرت فقد كل حق مدني ولا بدَّ من ان يقتصَّ العدل منهُ كعدو لسلم العالم ومكدر لصفائهِ. وذلك بمثابة حكم عليهِ بان دمهُ مهدور

وبعد معركة وترلو تنازل ثانية وذلك في ٢٢ يونيو سنة ١٨١٥ واوصلت حكومة باريس الى الجنرال بلوخر الالماني تطلب منهُ الهدنة فاجاب ان طلبها لا يجاب ما لم تسلم اليهِ نبوليون حيًّا او ميتاً وصرّح انهُ اذا وقع نبوليون في يده فانهُ يشنقهُ في اول شجرة يصل اليها . ولما وصل طلب الهدنة الى قيصر روسيا وملك بروسيا قالا انهُ لا بد من اعدام نبوليون قبل اجابة هذا الطلب . اما امبراطور النمسا فاكتفى بان يسجن نبوليون مدى حياته . ولو سجن في سجن نمسوي لما كانت حياتهُ فيهِ طويلة

اما انكلترا فاعترضت على الفريقين بسان ولنجتون وكتب ولنجتون ايضاً الى بلوخر ينصحهُ كصديق ان لا يكون لهُ يد في عمل مثل هذا فلم يعبأ بلوخر بهذه النصيحة بل بعث كوكبة من الفرسان لتقبض على نبوليون في المازون لكن نبوليون فرّ من وجهها ولجأ الى سفينة انكليزية وكتب الى البرنس الذي كان قائم مقام ملك الانكليز حينئذٍ يقول

يا صاحب السمو الملكي اني كضحية للاحزاب العادية التي اقتسمت بلادي ولعداء الدول العظمى في اوربا ختمت حياتي السياسية واتيت كتمستوقليس لاجأ الى حمى الشعب الانكليزي لاجأ الى حماية قوانينهِ وهذه الحماية اطلبها من سموكم الملكي لانكم اقوى واثبت واكرم من كل اعدائي

نبوليون

وكان قد قام في ذهن نبوليون منذ سنة ١٨١٤ ان اعداءهُ يقصدون اغتيالهُ وهذا هو السبب الذي الجأه الى طلب الحماية الانكليزية . وقد صرّح بذلك مراراً وقال لاوميرا وهو في جزيرة القديسة هيلانة انهُ لو ذهب الى اميركا لاغتالهُ فيها اجراء لويس الثامن عشر واما الانكليز فلا يغتالون احداً ولا رأى ملجأ محايداً يستطيع ان يلجأ اليهِ . ولما وصل الى السفينة البريطانية ابى ان يفارقها حتى لما وصلت بهِ الى جزيرة القديسة هيلانة ابى ان ينزل منها الاّ بعد ما خيم الظلام ولما وصل الى لونجوود محل منفاهُ طاب ان يحرس بحرس من البحارة البريطانيين . وكان يكره السر هدسن لو حاكم الجزيرة لانهُ كان مع بلوخر سنة ١٨١٤ ويحتمل ان يكون قد عدي بمبادىء العدوان الروسي فيسيء اليهِ

ولما بلغ انكلترا ان نبوليون لجأ الى سفينة بريطانية كتب لورد لڤربول الى لورد كاسلريه في باريس في ٢٠ يوليو سنة ١٨١٥ يقول

انا كنا متفقون ومصممون على ان نبوليون لا يقيم في هذه البلاد اذ يحتمل ان يترتب على اقامته عندنا مسائل قضائية جمة . وزد على ذلك انك تعرف ان الشعب في هذه البلاد قاسهم قد يثقفون حوله ويشفقون عليه فتقلق فرنسا من جراء ذلك

وكتب في ٢٨ يوليو يقول

لعلَّ جزيرة القديسة هيلانة خير مكان يمكن اقصاؤه اليه من غير ان يساء احد

ووافق الحلفاء كلهم على اقامة نبوليون في جزيرة القديسة هيلانة وحسب اسيراً للحلفاء كلهم محرسهُ انكلترا في تلك الجزيرة وقرروا ان يرسلوا كلهم مندوبين من قبلهم اليها دلالة على انهم مشتركون في اعتقاله فارسلت روسيا والنمسا وفرنسا مندوبين من قبلها واما بروسيا فاعتذرت عن ارسال مندوب بكثرة النفقات اللازمة لذلك

وهذه الجزيرة من اصح بلدان الدنيا هواء ونجد «لنجود» حيث اقام نبوليون اصح مكان في الجزيرة وهذا امر شهد بهِ الذين عرفوا الجزيرة قبل ذهاب نبوليون اليها وزكى شهادتهم العلماء والاطباء الذين رأوها بعدهم ويؤيد ذلك قلة الوفيات فيها . فمن الذين ذكروها قبل ذهاب نبوليون اليها بروكس فقد قال انهُ لا يفوقها مكان آخر في صحة الهواء والموافقة للصحة . وقال بيتصن لعلَّ هواءها الطف واصح ما يكون في الدنيا . وقال بارنز ان هواءها من اعدل واصح ما يكون في العالم . واقام ولنجتون بضعة ايام فيها في شتاء سنة ١٨٠٥ وكتب الى صديق لهُ يقول ان داخل الجزيرة جميل والهواء اصح هواء في كل بلاد دخلتها على ما يظهر لي . واما بعد اقامة نبوليون فيها فاني اشير الى الكتاب العلمي الذي وضعهُ ملس وطبع سنة ١٨٧٢ فقد قال فيهِ لعلَّ جزيرة القديسة هيلانة منقطعة المثيل في جودة هوائها . وكتب الحاكم سترندبل سنة ١٩٠٢ يقول اما من حيث الهواء فجزيرة هيلانة اصح هواء من كل مكان في الدنيا ووصف الدكتور ارنولد هواء الجزيرة سنة ١٩١٤ وقال انهُ صحي الى الغاية القصوى كما يستدل من معدل الوفيات فيها ففي خمس سنوات من سنة ١٩٠٦ الى سنة ١٩١٠ كان معدل الوفيات ٩ وستة اعشار لا غير في الالف والمرجح انهُ اقل معدل وفيات في الدنيا . ولونجود اصح بقعة في الجزيرة . وقال الحاكم فانوي في تقريره عن سنة ١٩٠٨ انهُ لم يمت في لونجود تلك السنة سوى اثنين عمر احدهما ٧٢ سنة وعمر الآخر ٩٥ مع ان عدد السكان هناك

٣٠ ثم قال وقد ارتأى الدكتور ارنولد وانا اشاركه في رأيه وهو انهُ ليس في المسكونة كلها مكان اصح من لنجود هواء

مع ذلك كلهِ شاع القول وتناقلت الالسن مدة مائة سنة ان جزيرة القديسة هيلانة مكان وبيء فاسد الهواء . وسبب ذلك ما حركهُ سقوط نبوليون من الشفقة في صدور الناس فتغير الحقائق هذا القلب الشنيع

لما جيء بنبوليون الى الجزيرة كان الاميرال السر جورج كوكبرن موكلاً بهِ وبقي كذلك ستة اشهر ثم خلفهُ السر هدسن لو في ابريل سنة ١٨١٦ فبقي في هذا المنصب الى ان توفي نبوليون سنة ١٨٢١ من غير ان يغير شيئاً في التراتيب التي تقررت في زمن سلفهِ . وهذه التراتيب صادق عليها مندوبو فرنسا وروسيا والنمسا حينما جاؤوا الى الجزيرة . وابرزها رسميًّا مؤتمر اكس لاشابل . وكان نبوليون والراغبون لهُ قد شكوا من انهُ يعامل معاملة سيئة فقرّر نواب الدول المجتمعون في ذلك المؤتمر ان لا صحة لتلك الشكاوى على الاطلاق وقرروا ايضاً ان نبوليون اسير لكل دول الحلفاء وانهم هم انابوا انكلترا لتحتفظ بهِ وصادقوا على كل المعاملة التي يعامل بها في منفاه وانهم لا يسمحون لانكلترا ان تغيرها . ولما وصل قرارهم الى الجزيرة زالت شكوى نبوليون وبطلت مخاصمتهُ للسر هدسن لو

وبعد سنتين ونصف مات نبوليون بعلة سرطان المعدة . وهذا الداء لا يصيب احداً من فساد الهواء ولا من قلة الرفاهة في المعيشة على ما نعلم . وكان المنتظر ان موتهُ بهذه العلة يمكث السنة الوشاة لكن كان الامر على الضد من ذلك فقالوا انهُ مات من سوء المعاملة التي عومل بها . ولما قصدوا اعادة الامبراطورية قالوا انهُ ذهب شهيداً في حب وطنهِ فدبّت عقارب العداوة بين فرنسا وانكلترا حتى اتسع مجال الخلف بينهما وتحول الى عداوة لا اساس لها الاَّ الوهم

وخلاصة ما تقدم ان نبوليون لجأ الى انكلترا قائلاً انها اكرم اعدائهِ لانهُ كان يعتقد ان حياتهُ تكون بأمن فيها وانهُ لو ذهب الى بلاد اخرى لقضي عليهِ . وان بلوخر اراد ان يقضي عليهِ واشترط قيصر روسيا وملك بروسيا اعدامهُ قبل السماح لفرنسا باهدائهِ فاعترضت عليهما انكلترا لا فرنسا ولما صار على سفينة انكليزية اطمأن على حياتهِ فنقلتهُ انكلترا بالنيابة عن الدول الى اصح بقعة في الدنيا وعاملتهُ هناك معاملة غاية في الاكرام والاحترام باعتراف نواب الدول . ونبوليون نفسهُ

لم يكن ليعامل من في يده معاملة احسن مما عومل به كما يعلم من معاملته لبابا . والسر هدسن لو من افراد الناس واليهم عريكة وقد بذل جهده في تسهيل الاعتقال على نبوليون . والحكومة الانكليزية والحاكم الذي من قبلها عملا عملاً يستحق ان يحسب مثالاً لكرم الاخلاق في معاملة العدو والظفر عند المقدرة . ومع ذلك كله اعتقد الناس ولا يزالون يعتقدون في فرنسا وفي سائر ممالك اوربا وفي اميركا ايضاً وفي كل العالم المتمدن ان معاملة الحكومة الانكليزية لنبوليون كانت غاية في القسوة وان السر هدسن لو وحش مسرته قهر نبوليون . والقعة التي هي اصح هواء من كل بقاع المسكونة حسبت موبأة قتالة . والعالم كلهُ يتهم انكلترا انها بدسيسة منها هرب نبوليون من جزيرة البا وبدسيسة منها نجا من القتل في ترلو وبدسيسة منها مات في جزيرة القديسة هيلانة . فاذا أتي الآن بامبراطور المانيا الى انكلترا واعتقل فيها فكل التصريحات الرسمية وغير الرسمية وكل وسائل الراحة والرفاهة التي نغدقها عليهِ لا تنجينا من سوء ظن الناس بنا واتهامنا بسوء القصد

وامبراطور المانيا لا يُخشى منهُ كما كان يخشى من نبوليون ولكن لهُ ما ليس لنبوليون لهُ سلسلة من السلف ملوك عظام استمرّت بهم بلادهم لانهم رفعوها الى اوج المجد والسؤدد وصيروها امبراطورية عظيمة . ولم يكن في طاقة بسمارك ان يؤلف الاتحاد الالماني لولا الفعال الباهرة التي فعلها بيت هوهنزلرن فردرك وليم الاول المنتخب العظيم . وفردرك وليم الذي رقّى منتخب برندنبرج الى رتبة ملك بروسيا . وفردرك وليم الثاني الذي هيأ بروسيا للحرب . وفردرك الكبير الذي اعلى منار بروسيا . والامبراطور السابق الذي قُرّ عرشهُ الآن يمثل بيت هوهنزلرن المجيد الذي تود المانيا كلها ان تشترك في مجده وهذا المجد سينتقل الى خلفهِ حين وفاتهِ بطبيعة الحال . وقد يتناسى الناس ذلك الآن ولكنهم يذكرونهُ بعد حين فيتجدد وينمو . وعلينا ان لا ننسى عواطف اناس واميالهم . فقد دلّ الاختبار على ان اعتقال المرء يوجه الانظار اليهِ ويحنن القلوب عليهِ حتى يعدّ من الشهداء فاذا حكم على ولهلم الثاني بالسجن فاننا نرجو ان لا يتكرر ما نالنا من سجن نبوليون وان انكلترا لا تقبل ان تكون هي السجّانة لئلا ترشق بالتهم الكثيرة مدة حياتهِ واذا مات اتهمنا بقتلهِ . فاننا لا نطيق ان يقوم العالم كلهُ علينا مهما كنا اولياء